مقالة في التربية

لحضرة الكاتب الفاضل عبد الله افندي المراش نزيل مرسيليا
(تابع لما في الجزء السادس)

المطلب الخامس

في ابتداء تنوير الذهن

اكثر الناس يعتقدون ان تنوير ذهن الولد قائم بمجرّد تدريسهِ بالكتب كما تقدم وهذا خطأٌ اوّل يترتّب عليهِ خطأٌ ثانٍ وهو انهم يسرعون بوضع الولد في الكتّاب وهو ابن اربع سنين على الكثير[1] و يحملونهُ بادئ بدء على تعلم التهجي حتى اذا حفظ اسماء حروف الهجاء اخذوا في تعليمهِ القرآءة بالكتب وهو بعدُ في سنٍّ لا تصلح لذلك . ولو كانت الكتب التي يحملونهُ على تعلّم القرآءة بها قريبة المأخذ سهلة العبارة تشتمل على قصصٍ يستلذها ويرتاح لمعرفتها او على فوائد بسيطة تشفي ما في صدورهِ من غليل الاستطلاع والاستعلام لكان الخطب اهون لكنهم يحملونهُ على قرآءة كتبٍ لا يكاد يفهم اكثر معانيها فيتبرّم الولد بتلك الكتب و بقرآءتها تبرّم الزنجي اذا حملتهُ على سرد الفاظٍ بلغة اليونان او بلغة اهل الصين ويُفضي بهِ ذلك الى كراهة القرآءة والكتب والعلوم باسرها

وكل من عانى امر تعليم الاولاد في البلاد المتمدنة يعلم انهُ لا ينبغي وضع الولد في الكتّاب وهو صغيرٌ جدًّا وانهُ اذا حان وقت وضعهِ فيهِ اسيء اذا بلغ السنة السادسة من عمرهِ على الاقل فلا ينبغي ان نحملهُ بادئ بدء على التعلم

---

١ كما يفعل اكثر الناس في بلادنا وذلك تخلصاً من عرام الولد اثناء بضع ساعات من النهار والقاء لهذا العبء على كاهل المعلم

بالكتب بل ينبغي ان نداوم ثمَّ على ما كنا نفعلهُ بهِ وهو بعد في البيت اي على تعليمهِ بالاشياء والمراد بذلك الاشياء التي تقع تحت حواسّهِ او تخطر ببالهِ او تستلفت نظرهُ فيسأل عنها سواء كانت في البيت او في السوق او في البستان او في الكتاب او كانت من اعضاء جسمهِ او ثيابهِ او من قماش البيت او من انواع الطير والحيوان او من افعالهِ او افعالها وهلمَّ جرًّا . ولا نفتح الكتب الا اذا نفدت هذه الاشياء لان ما يتعلمهُ هكذا يكون احبَّ اليهِ واشدَّ رسوخاً وتأصّلاً في ذهنهِ اذ يكون هو الذي تنبّه لهُ وسعى في تحصيلهِ وانتقل اليهِ فكرهُ وصار لهذه العلة صاحبهُ فكان اولى ان يحتفظ بهِ ويغار عليهِ مما لو تلقّنهُ من الكتب او اخذهُ عنها حفظاً عن ظهر القلب من غير فهمٍ لمعناهُ ولا عناء بهِ ولا رغبةٍ فيهِ لان ما يحصلهُ هكذا لا يلبث ان ينساهُ سريعاً

ومَن أخذ البلاد بغير حربٍ يهون عليهِ تسليم البلادِ

وفضلاً عن هذا فانَّ التعلّم بالاشياء انما يكون بالمباشرة والملابسة والامتحان والاختبار بالنفس لا عن يدٍ فهو لذلك افضل من التعلم بالكتب لان ذاك تيقّن بالخبرة الشخصية وهذا في اول الامر تسليمٌ بما يقولهُ الغير وشتان ما بينهما . واضف الى ذلك ان العبارات والالفاظ التي في الكتب مهما كانت قريبة المأخذ سهلة الاشارة مألوفةً لا تولّد في ذهن الولد شيئاً من الخواطر الاّ على قدر ما تمتدّ اليهِ معرفتهُ بالاشياء والافعال والمعاني التي وُضعت تلك الالفاظ للدلالة عليها . ثم ان تعليمهُ بالكتب وبما فيها من القواعد العامّة العويصة التي تتعب البالغين انفسهم يجري على خلاف مجرى الطبيعة في تنوير الذهن اول ما يتنور وبذلك يقع التعاند بين فعل المعلم وفعلها . لان التعليم بالكتب يُبتدأ فيهِ بالكليات قبل الجزئيات التي تؤلفها وسير الطبيعة يقتضي العكس اي الابتداء

بالجزئيات ثم الانتقال منها رويدًا رويدًا الى الكليات لان من حقّ البسائط ان تتقدم على المركبات تقدم العلل على معلولاتها والمقدّمات على نتائجها. والعلماء الذين وضعوا قواعد العلوم كلها لم يتوصّلوا الى وضعها الا بعد استقرآئهم المفردات الداخلة في حكمها. فارسطوطاليس لم يتوصل الى وضع قواعد المنطق الاّ بعد استقرآئهِ طرق الناس في التعليل والبرهان والاستدلال وضرب الاقيسة واستنتاج النتائج. وابو الاسود الدُؤلي (او سيبويه) لم يضع قواعد النحو الاّ استنادًا الى ما استقراهُ من اساليب العرب في التعبير عما في انفسها وتغييرها احوال الكلم تبعًا للمعنى الذي تريدهُ لا عن علمٍ منها بالتصريف والجارّ والمجرور والفاعل والمفعول. والخليل لم يضع قواعد العروض الا استنادًا الى ما استقراهُ من الاشعار التي كانت العرب تنظمها موزونة مطردة الرويّ والقافية على غير معرفةٍ منها بالاسباب والاوتاد والعلل والزحاف وهلمّ جرًّا. فالقواعد اذًا نتيجة استقرآء الاحوال المفردة وتلخيصٌ لها ولذا كان من الغلط البيّن ان نشرع في تعليم الولد قواعد العلوم كعلم النحو مثلاً من قبل ان يعرف شيئًا من الجُمَل المتنوّعة التي يتركب منها الكلام في اصطلاح النحاة بل من قبل ان يعرف معاني الالفاظ المفردة التي تتألف منها تلك الجمل اذا انهُ لا يعرف بعدُ سوى لغة العامّة التي تخاطبهُ بها امّهُ او ظئرهُ او خادمتهُ وهي لغةٌ تكاد تكون مالطية لكثرة ما دخل فيها من اللغات الاخرى ولكثرة فسادها من وجوهٍ متعددة على ما هو معلوم. اما عبارة الكتب فهي غالبًا بلغةٍ تكاد تكون للبالغين انفسهم بمنزلة اللغة اللاتينية او اليونانية القديمة للافرنج المحدثين. ومهما يكن من هذا فان الولد لا يفهم عبارة كتب العلوم لانها بلغةٍ غير لغتهِ العامّية التي لا يعرف بعدُ سواها. وقد اسلفنا ان تعليمهُ القواعد بالكتب يبتدئ عندنا قبل اوانهِ اي حينما

يكون الولد بعدُ في سنٍّ لا يستطيع معها ان يدرك الامور العامّة التي نحملهُ على تعلمها لعدم علمهِ بالامور الخاصّة التي تتألف تلك الامور منها فكأننا نحملهُ على تعلم الرموز قبل ان يعرف الاشيآء المرموز اليها والدلالات قبل الاشيآء المدلول عليها ويكون مثلهُ في ذلك كمثل البنّآء الذي يحاول ان يعقد سقف البيت من قبل ان يقيم الجدران التي تُقلّهُ . وهذه الطريقة من التعليم تجعل ذاكرتهُ كمعجمٍ تُقيَّد فيهِ الفاظ بعض اللغات المائة او كدفترٍ تُجمَعُ فيهِ خواطر الآخرين وما حصّلهُ غيرهُ من الباحثين وكان الاحرى ان يكون هو نفسهُ الباحث عن الخواطر والمحصّل لها

فلا بدع والحالة هذه ان كثيرًا من الاولاد اذا خرجوا من الكتّاب او المدرسة ينسون كل القواعد التي اتعبناهم في تحفّظها وان لم ينسوها كلها فالتي يذكرونها منها لا تفيدهم شيئًا لانهم لم يتشربوها كما ينبغي ولا اختبروا صحتها بانفسهم ولا انطبقت احكامها عندهم على معلوماتٍ بسيطة تعلموها صغارًا وسبق رسوخها في اذهانهم بحيث اذا انضافت اليها تلك القواعد امتزجت بها وارتبطت ولذا تبقى في اذهانهم متقلقلةً لانهُ لا شيء ثمَّ يُقلّها ومنفردةً غريبةً لانهُ لا شيء ثمَّ من جنسها تألفهُ وتنضمّ اليهِ وهم انفسهم لا يقدرون ان يستعملوها في مواضعها اذا مسّت الى ذلك الحاجة لانهم في الغالب لم يفهموها وهب انهم توصلوا بعد العنآء الطويل واجهاد القريحة الى ادراك معناها وهم بعد في المدرسة فكثيرًا ما يتفق انهم اذا خرجوا تركوا استعمالها لمقتهم اياها وترك العادة يورث البلادة

ستأتي البقية